طلقة (٢٥)

مع هيكل .. العسكرية والصحافة

وتصرف طنطاوي بشهامة الرجال!

فجأة وجد مدير السجن الحربي اللواء محمد أشرف أن السجين الذي يقف أمامه هو الفريق أول سعد الدين الشاذلي أستاذه ومثله العسكري الأعلى، فقام تلقائياً وأدى له التحية العسكرية رغم أن هذا يخالف التعليمات وبعد قليل تلقى مكالمة تليفونية تخبره بضرورة الذهاب صباحاً إلى مكتب وزير الدفاع المشير طنطاوي لأمر مهم، وظل يضرب أخماسا بأسداس للعقاب الذي ينتظره بسبب ما أقدم عليه رغماً عنه ودخل إلى مكتب طنطاوي، وقال له بوضوح:

- الخلاف السياسي مع الفريق سعد الشاذلي لا ينسينا أفضاله على الجيش وعلى مصر كلها.

ثم بدأت الاتصالات تنهال على مدير السجن من كبار ضباط الجيش يوصونه خيراً بالفريق المعتقل، وكانت تعليمات طنطاوي صريحة يجب أن توفر كل أسباب ووسائل الراحة للفريق الشاذلي، فقام بتجهيز جزء من مستشفى السجن كجناح خاص به أجهزة رياضية لرجل تخطى السبعين في هذا الوقت وحرصه على الرياضة بلا حدود كان صلباً كسنديانة ويقظاً كشاب يتفجر بالحيوية، صافي الذهن كحكيم شديد الحرص على كل ثانية من الوقت، يحفظ نتائج التحليل الطبي الدوري الذي يجريه ويناقش الأطباء كأنه من خريجي الطب، ويناقش هيئة الدفاع عنه وهم من كبار المحامين مثل: سليم العوا، عبد الحليم رمضان، محمد حلمي مراد، كأنه يحفظ القانون عن ظهر قلب.

هو الآن السجين الذي يسأل عن حقوقه وواجباته، لا يريد أكثر من حقه ولا يزيد رغم أنهم فتحوا له المجال، زيارات بلا حدود، ووضع لنفسه برنامجاً لا يحيد عنه:

الاستيقاظ في السادسة صباحاً يصلي الصبح ويقرأ القرآن الكريم لمدة نصف ساعة ثم يمارس الرياضة على الأجهزة لمدة ساعتين بعدها يأخذ الحمام ثم الإفطار وهو لا يزيد عن ملعقتي فول وقطعة من الجبن، وربع رغيف وكوب من

اللبن ثم يقرأ الصحف ويتابع المستجدات في نشرات الأخبار تلفزيونياً ويسجل ملاحظاته في نوتة لم تكن تفارقه فإذا دقت الثالثة عصرا جلس إلى الغداء المكون من الخضار السوتيه وقطعة لحم لا تزيد على ٩٠ غراماً وملعقتي أرز بالعدد ويرتاح لمدة ساعة، وعند الخامسة يتناول ثمرة طماطم واحدة ومثلها من الخيار، ثم يعود لقراءة الصحف ومشاهدة الأخبار ويكون العشاء زبادي وملعقة عسل وينام بعد نشرة أخبار التاسعة، ويقوم على خدمته مجند خريج سياحة وفنادق وحارس خاص مراسلة، كان يسحب سلك الكهرباء ويحسب بالدقيقة كم يستغرق غلي الماء لكي يفصله، ولا يجلس أمام التلفزيون أكثر من اللازم، وعائلته تعرف أنه سوف يأمرها بالانصراف بعد نصف ساعة هي زمن الزيارة مثل غيره من سجناء ونزلاء السجن الحربي، وكان يلتقي بهم في صالون ملحق بمكتب مدير السجن الذي كان يتعذب وهو يرى هذا القائد في محبسه، وغيره في أعلى المناصب، وطلب منه أن يكتب عفواً لكي يتم الإفراج عنه بقرار من مبارك وحذره من أن يعيد هذا الكلام عليه مرة أخرى حتى لو قضي في السجن ما تبقى من العمر، ولما قضى نصف المدة وهي سنة ونصف السنة كتب مدير السجن اسمه في كشف المفرج عنهم لحسن السير والسلوك وهو أمر متبع في السجون ولكنه أيضاً رفض خوفاً من أن يتم شطب اسمه، أو يظهر أمام مبارك في حالة ضعف وتوسل، وكان مبارك هو الذي يرسل إليه بالمندوبين يخبرونه بذلك وكان يردهم، في خيبة ويفوت الفرصة عليه أن يكسب بطولة زائفة على حساب بطل حقيقي دخل سجنه زوراً وبهتاناً، وحتى يكسر شوكة المهندس الحقيقي لحرب أكتوبر.

وجمعته مع مدير السجن جلسات طويلة ودية، ونصحه خلال إحداها بأن يكثف الحراسة على السجن والرجل يعرف أنه مستهدف، وكان من بين من ذهبوا إلى الشاذلي في محبسه ينصحونه بكتابة التماس إلى مبارك اللواء هتلر طنطاوي وكان وقتها الأمين العام لوزارة الدفاع. وفي لحظات الأنس التي زادت أواصر

المحبة بين مدير السجن وأستاذه الشاذلي تحدث طويلاً عن أمنيته أن يتوحد العرب وأخبره بزيارته للعراق قبل هجوم قوات التحالف لتحرير الكويت فهو يؤمن أن غزو العراق للكويت كان خطيئة كبرى فالكويت دولة عربية ذات سيادة ويجب احترام حدودها، ونصحت صدام بأن يترك الكويت وينسحب ، لأن أميركا تريد استثمار هذه الفرصة ووضع يدها على المنطقة بأكملها، ولكن صدام لم يستمع إلى النصيحة. ولما عرف بأمر الإفراج عنه لمرور نصف المدة انزعج وطلب أن يقرأ نص القرار حتى يتأكد أنه ليس منحة من مبارك أو تفضلاً عليه.

دراما المذكرات

ماذا في تلك المذكرات التي أصر الشاذلي على نشرها وفضح المؤامرة عليه وكشف الحقيقة للتاريخ بعد أن رفضوا محاكمة علانية، وعندما أدرك نظام مبارك بأن المذكرات وكان يعرف بها من أيام السادات وقت أن كان نائبا، استخدم كل نفوذه خارج مصر بالترهيب والترغيب مع دور النشر العالمية والحكاية ترويها شهدان ابنة الفريق الكبرى التي علمها كيف تقفز بالمظلات وفعلتها أمام جمال عبد الناصر، لكي يثبت أن البنت قد تكون أشجع ألف مرة من عشرات الرجال تقول:

توجهت إلى إنكلترا ومعي نسخة إنكليزية من المذكرات وقابلت «باتريك سيل» وهو صحافي ومحلل شهير في صحيفة الأوبزرفر ويمتلك داراً للنشر وله علاقات عربية واسعة واقتنع بأهمية الكتاب ولكنه سرعان ما تهرب ولا يرد حتى على تليفوناتي، واتجهت بالكتاب إلى أميركا وتحديداً إلى مجموعة أراب أميركا ورفضوا نشر الكتاب في بلد الحرية، وبعض الأصدقاء رشحوا لي الدكتور كيالي الفلسطيني الذي يمتلك دار نشر العالم الثالث، ومرة أخرى دخلت في دوامة من الرفض غير المقنع، وعدت مرة أخرى إلى أميركا وعرفت أن اللوبي الصهيوني كان أيضاً يمارس ضغطه لعدم نشر الكتاب الذي يروي حقائق حرب أكتوبر بالأرقام وبكل دقة، وكان هدفهم إفساح المجال للكتب الإسرائيلية وحدها لكي تعطي

انطباعاً للعالم بأن إسرائيل قد انتصرت في حرب ٧٣ ولم تخسرها، خاصة بعد ثغرة الدفراسور.

والمفاجأة التي عرفت بها بعد ذلك اغتيال الناشر الفلسطيني الكيالي بعد أن عاد وأبدى موافقته على نشر الكتاب. وكان الحل الأخير هو نشر الكتاب على نفقة المؤلف وتم ذلك بالفعل وسط مخاوف من مصادرة الكتاب أو منعه وهو ما فعله نظام مبارك بالفعل، حيث لم يتم الإفراج عن المذكرات إلا بعد رحيل مبارك لدرجة أن بعض دور النشر قامت بطبع الكتاب بدون إذن المؤلف في طباعات رخيصة، ورغم الضجة التي أثيرت حول الكتاب إلا أن مبيعاته في بداية الأمر كانت متواضعة وتدريجياً بدأ تسريبه إلى مصر وارتفعت معدلات التوزيع ونفذت الطبعات الواحدة بعد الأخرى في لغات مختلفة بعد أن تناولت كبرى الصحف الإنكليزية موضوع المذكرات. لقد اكتشف الملايين في الشاذلي محللاً سياسياً بارعاً كما عرفوا عنه بطولاته العسكرية التي حاول السادات ومن بعده مبارك على وجه الخصوص حجبها فإذا بها تزداد وتكبر.

ورغم رحيل مبارك عن السلطة، ورحيل الشاذلي عن الحياة في يوم واحد (١١ فبراير)، إلا أن أعوان مبارك حاولوا بكل السبل وفي شركات الإنتاج الدرامي على وجه الخصوص منع ظهور مسلسل تلفزيوني عن الشاذلي كان كاتب السطور قد شرع في كتابته، بعد أسابيع قليلة من هذا التاريخ، خاصة أن الأخبار التي نشرت حول المسلسل أكدت أن حلقاته سوف تكشف بالدليل القاطع جريمة مبارك في حق الشاذلي وسر كراهيته له، والخوف من الشعبية الطاغية التي يتمتع بها هذا البطل، والمعروف أن أغلب شركات الإنتاج الكبرى لها علاقة من قريب أو بعيد بمبارك، وكانت تعليماتهم، بعمل المسلسلات السطحية التي تبعد العقول عن التفكير في هم الوطن، وصرف الأنظار عن الأبطال الآخرين والتركيز فقط على بطل الضربة الجوية. قمت بزيارة شبراتنا وتقابلت مع العديد من أفراد عائلة

الشاذلي من أبناء عمه، وزرت المسجد الذي قام بتشييده في القرية بجوار فيللا صغيرة خصصها لسكنه خلال تواجده في القرية وقد كان حريصاً على التواصل مع أهله وأقاربه وحل مشاكلهم ومساعدة فقراء القرية وأنشأ لهم بجوار المسجد عيادة طبية مجانية، ومع ذلك حاربت وزارة الأوقاف إقامة المسجد ورفض هو أن ينضم إليها ويصبح تحت ولايتها.

ومن العجيب أنك في مدخل القرية سترى لافتة كبيرة على مبنى المدرسة الابتدائية تحمل اسم حسني مبارك، وبعد ثورة ٢٥ يناير نزع الأهالي هذه اللافتة التي كانت في مرمي البصر للقادم والذاهب من بيت الشاذلي إلى خارج القرية أو داخلها، وكثيراً ما قال لأقاربه. وهو يرتدي الجلباب والعباءة مثلهم: أنا لا أكره مبارك ولا أكن أدنى عداوة، لكني اختلف معه في أسلوب حكمه، وأتمني أن أرى بلادي تعيش حياة ديمقراطية سليمة، يتم فيها انتخاب رئيس الجمهورية عن طريق الشعب.

وفي آخر أيامه كان يحذر من عملية التوريث ويخشى منها، ويرى أن الشعب ربما يستسلم لها في أول الأمر، لكنه حتماً سوف يتمرد عليها ويرفضها ويحاربها، كان يعرف جيداً أن الشعب مهما ظهر صبوراً حمالاً للظلم، لكنه عندما يصل إلى نقطة النهاية يقهر ظالمه مهما كان، ويستشهد في ذلك بالتاريخ العظيم التي قهرت المستعمر عبر معاركها وغزواتها العديدة، لكن أهمها وأخطرها معركة بناء وطن قوي مستقل غير تابع أو ذليل يمد يد التسول إلى أميركا وغيرها، وهو الذي يمتلك كنوز الأرض كما جاء في القرآن الكريم. في أيامه الأخيرة كان يراهن على انتصار الشعب، وفاز في رهانه، ومن يرى أسرته وأحفاده كيف شبوا على الوعي والكبرياء ونزلوا ميدان التحرير مع ملايين الشباب من أمثالهم في ثورة يناير سيدرك أن الشاذلي انتصر في معركته مع العدو وانتصر في معركة الحياة وقهرها في أصعب المراحل والمواقف، لأنه ببساطة رجل ضد الكسر.